

ملكة التفكير
وقيمتها فى نظر الاسلام

الاستاذ الدكتور

محمد محمد يحيى

الاستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى دبر شئون خلقه ، وأرشدهم إلى مافيه الخير والسعادة لهم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، خلق الإنسان وزكاه ، وعلى موائد فضله كرّمه ورباه، وبكل النعيم حباه جعل الانسان سلالة العالم وزبدته واختصه بانواع التكريم من اعتدال القامة ، والتميز بالعقل ، والإفهام بالنطق ، وتناول الطعام بيده لا بفمه والتمكن من الصناعات، قال تعالى:﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (١).

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله كان يوجه العقول إلى الحقائق، ويهيب بها إلى التأمل فى الكون ، وماحوى من مظاهر الابداع والاتقان ....

يدعو إلى النظر فى الكائنات ليصل المدعو عن طريق التأمل الصادق، والنظر الصحيح والبرهان القاطع إلى أن خالق الاكوان على هذا الأحكام والاتقان ، ومدبرها على هذا النظام البديع لابد قوى قادر وعليم حكيم ....

فقد جعل العقل حكماً ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين وأنب من يتبع الظن ﴿ وإن الظن لايغنى من الحق شيئا ﴾(٢).

كما عاب تقديس ماكان عليه الاباء من الباطل ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها. اللهم صل وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا مسلكه وساروا على دربه (رضى الله عنهم وأرضاهم)، ورضى عن كل المسلمين إلى يوم الدين .. ثم أما بعد .

(١) سورة الإسراء آية (٧)   (٢) سورة النجم آية (٢٨).

فقد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان ، وميزه عما سواه بالعقل ، فبه كرمه، ولأجله كلفه ، ومما لاشك فيه أن التفكير مميز ذاتى بالنسبة للانسان دون غيره من مخلوقات الله ، لذا كانت هذه الملكة الممنوحة للانسان مناط تفضيله على غيره ممن يعمر الأرض معه من مخلوقات الله تعالى، ثم هى فى نفس الوقت مناط تكليفه بالفعل والترك ، يتضح ذلك من المطالعة العابرة لكتب الفقه الإسلامي ، حيث يقف العقل كشرط لوجوب أداء التكاليف الشرعية بحيث من يفقده يرفع عنه التكليف .

وكما يعد العقل شرطاً للتكليف فهو فى ذات الوقت شرط للمسائلة وتحمل المسئولية والجزاء فالعقل إذن مناط للتشريف ، والتكليف، والمسئولية. ولابد للانسان من مزاولة التفكير ، وهو ككائن حي يحتاج إليه حينما يلح عليه دافع من الدوافع أو ميل من الميول ... وهنا يستثار تفكيره فى الوسائل التى تلبى هذا النداء ، وتشبع هذا الإلحاح وتحفظ على الانسان توازنه ، وتلاؤمه مع نفسه ، وبيئته ومجتمعه .

ولأهمية هذه الملكة للانسان عنى الإسلام بها، وحاطها بسياج من العناية والرعاية حتى تؤدى دورها دون تشتت أو تضليل فما قيمة هذه الملكة فى نظر الإسلام ؟ وكيف حافظ عليها ؟ هذا ما سيتضح من ثنايا هذا البحث الموجز.

أولا: ما معنى التفكير ؟

للتفكير عند علماء النفس معان متعددة ، ولعل من أجمعها ذلك التعريف الذى عرف بأنه « نشاط العقل حينما تصادفه مشكلة تستوقفه ، أو موقف يحيره فيحاول اعمال عقله حلا لهذا الاشكال ، والخروج من المأزق .

وفى سبيل ذلك يعبىء الانسان جميع قواه العقلية المختلفة من تخيل ، وتذكر وتعليل واستنتاج ونقد [1]... إلى غير ذلك .

وبناء على ذلك يقرر علماء النفس أن للتفكير مستويين .

الأول: حسى أو عيانى ، وهو ماكان موضوعه الماديات ، والمحسوسات وذلك كتناول العقل لمظاهر الكون واستخدامه له تسخيرا .

الثانى : مجرد ، وهو مايكون بالرموز مجردة عن مدلولاتها الحسية كما فى علم الجبر والرياضيات مثلاً .

وهذا المستوى الأخير من التفكير لايرقى إليه إلا الإنسان الرشيد الذى يمكنه ذكاؤه من عملية التجريد هذه .

واستعمال الرموز والتجريد عبارة عن ملاحظة أوجه الشبه بين أشياء متشابهه متغايرة فى آن واحد ، وبتجريد الإفراد من مميزاتهم الفردية يبقى القدر المشترك بينهما جميعاً مما يعين على تسمية عامة لها [2].

كما إذا أردنا مثلاً أن نضع تسمية للإنسان يشترك فيها كل أفراد نوعه ، فإننا نتغاضى عن الصفات التى قد تميز فرداً عن الآخر كالطول، والقصر والبياض والسواد .

ولا شك أن هذه العملية تتوقف على التميز بين الصفات العامة، والصفات الخاصة فهى متفرعة عن هذا التميز ، وبعد تجريد الافراد من صفاتهم التى تميزهم كأفراد يبقى القدر المشترك بين كل أفراد هذا النوع،

(١) حول هذا راجع / علم النفس – أحمد مهنا ص ٥٤ ، ومدخل إلى العلوم السلوكية علم النفس ، تأليف/ أعضاء هيئة تدريس علم النفس بكلية التربية / جامعة الأزهر ص ١٢٩ ط ١٩٩٧م.

(٢) راجع مذكرات فى علم النفس د/ محمود عبدالمعطى ص ٨ .

على الرغم من اختلاف صفاتهم الجزئية، وهذا القدر تجده يتكون من جزئين:

الجزء الأول : الحيوانية « الجسمية النامية الحساسة المتحركة بالارادة.

الجزء الثانى : الناطقية وهى الفكر أو التفكير.

فالتسمية إذن تكون بالحيوان ، فتعبر بهذا عن حد الإنسان إذا ما سُئلنا ما هو فنقول فى الجواب: حيوان ناطق أو مفكر.

وهذا مجرد مثال، وإلا فدائرة التفكير أعم من ذلك وأشمل لانها تشمل كل مايحيط بالانسان ، ويحيطه ببعض التساؤلات.

فلا بد من التفكير إذن لاشباع دافع حب الاستطلاع، وتلبية ماتنادى به طبيعة الانسان من حاجات وميول.

ولا يكون ذلك إلا بالمعرفة التى تكون عادة عن طريق التفكير بمستوييه السابقين.

ثانيا: العلاقة بين التفكير واللغة:

ومما لا شك فيه أن حركة العقل الفكرية عبارة عن عملية داخلية تحتاج فى معظم الاحيان إلى مظهر يعبر عما يدور فى الخاطر وعلاقة التفكير باللغة علاقة وثيقة جداً، وهى من الوضوح بمكان لأن اللغة هى المعبرة عما يدور فى خلجات النفس عادة ... ولله در من قال:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما　　　جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

الأمر الذى دعا بعض المهتمين بالدراسات النفسية إلى القول بأن التلازم بينهما حتمى، لأن الفكر عندهم لايعدو أن يكون كلاماً باطنياً.

وإن كان البعض يعترض عليهم فى هذا التلازم الحتمى مدعمين هذا الاعتراض بما يلى:

(١) إننا كثيراً ماترى اللغة لاتتمشى مع الفكر كما فى حالة النطق بما أصبح شبيها بالعادة لدى الإنسان ، فأحيانا ينطق الإنسان بشيء حال مايفكر فى غيره.

(٢) فى أحيان كثيرة يكون التفكير سريعاً بحيث لا تسعفه اللغة ، وذلك حينما يريد الانسان أن يعبر عن معنى ، ولكنه يعجز عن اقتناص الكلمات المعبرة ، كما فى حال الطفل الذى لم تتكون لديه بعد حصيلة كافية من الألفاظ بحيث تتيح له أن يعبر عما يدور فى فكره.

هذا ماحدا بهؤلاء إلى القول بأن التلازم بين اللغة والفكر غير ضمنى(١).

وحقيقة فإنه على الرغم من أهمية اللغة للفكر والدلالة عليه، والتعبير عنه إلا أن اللغة قد لاتتعين فى بعض الأحيان طريقاً للتعبير عن فكرة أو أخرى ففاقد النطق مثلا يفكر ويستنتج ، وأحيانا يحلل ، ويركب ، ويخترع ويبتكر، وقد تلعب حركة اليد أو العين منه دوراً فى التعبير عما يدور فى خلده من فكر أو صور عقلية، كذلك الكلام ليس من الضرورى أن يعبر دائما عن فكر- فى نظرى- فالسكران مثلا في غيبوبة عقلية ولكنه ينطق بألفاظ ليست معبرة بالضرورة عن مضمون فكرى، لأن أداة الفكر عنده وهى العقل قد سترها السكر.

---

(١) حول هذا راجع - مذكرات في علم النفس د/ محمود عبدالمعطي ص ١٢.

كذلك فإنه يمكن للإنسان أن يعبر عن فكره ببعض الحركات المحسوسة وإن كان يتكلم ....، وأحيانا يعبر الرسم عن فكر صاحبه ... وهناك مايسمى بالتمثيل عن فكر فلسفي منظم متناسق غالباً، إلا أنه يعتبر فكراً أو نوعاً من الفكر، وعلى أى حال أعنى فكراً بالمعنى الواسع وهو حركة حركة العقل الداخلية (١).

وهكذا يتضح لنا أن هناك وسائل أخرى للتعبير عن الفكر بجانب اللغة التى تعتبر على الرغم من ذلك المعبر الإساسى عن التفكير.

أهمية ملكة التفكير وقيمتها فى نظر الإسلام:

ولما لهذه الملكة من عظيم اعتبار، ولكونها من أجل نعم الله تعالى على الإنسان عنى بها الاسلام عناية خاصة، فصانها عما يضيع أثرها، ورسم لها حدود عملها ، وغاية هذا العمل.

فقد علمنا الخالق سبحانه وتعالى كيف نستخدم نعمة العقل بحيث يتحقق بهذا الاستخدام أعلى مقرر للافادة من هذه النعمة الجليلة التى يتميز بها الانسان عن سائر مخلوقات الله، وهو المقرر الذى يضمن لهذه الأمة التغلب والظهور على المشكلات والمعوقات مهما كانت درجة فداحتها وشدة خطورتها فى حساب البشر وهو المقرر الذى تصبح به الأمة خير أمة أخرجت للناس (٢).

والمتأمل فى نصوص القرآن الكريم يجد أن من أهم مزاياه الواضحة هى التنوية بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف،

---

(١) وفي كتاب طوق الحمام /لابن حزم – حديث عن اشارات المحبين ، وانواعها وماتعبر عنه من معان وأفكار تحملها قلوب المحبين والامثلة كثيرة في هذا الباب .

(٢) راجع المدخل لدراسة الإعلام الإسلامي أ.د/ عمارة نجيب ص ١٤٧ .

بخلاف الكتب الأخرى التى تأتى الاشارات فيها للعقل عرضاً غير مقصودة، بل أن القارىء لها قد يلمح فيها فى بعض الأحيان شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والانكار فى نظر مؤلفيها.

وهذا بخلاف الناظر فى آيات القرآن الكريم التى لاتذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولاتأتى الاشارة إليه عارضة ولامقتضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل موضوع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه ولايأتى تكرار الاشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف اعمالها وخصائصها، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف ، والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته [1].

هذا، وقد جعل الإسلام تنشيط العقل وتحريك طاقاته الانتاجية، والعملية الجادة المفيدة جهاداً فى سبيل الله، ولذا جعل من التشريعات ماينتصر للعقل ويحافظ عليه حتى تصان هذه الملكة صيانة تتناسب مع عظيم شأنها وجليل خطرها وكان من أهم تشريعات الإسلام فى هذا المجال:

١- المحافظة على العقل باعتباره من أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان، فحرم مايؤثر على قواها ويسترها كالخمر مثلاً، وشدد فى ذلك إلى أن جعل لساتر عقله ومتناول الخمر حداً نصت عليه الشريعة

---

(١) راجع التفكير فريضة إسلامية / العقاد ص ٥ ، ٦ .

الإسلامية لأن سترها تعطيل لملكة التفكير فى الإنسان التى خلقت أصلاً لوظيفة هامة، هذه الوظيفة هى تناول جوانب النفس، وظواهر الكون، وإعمال الفكر فيها وصولاً إلى قضايا هامة تتعلق بوجود خالق الكون، وصعوداً من الكون إلى المكون، ومعرفته المعرفة التى تقع تحت طائلتها استجابة لدافع ملح على الإنسان دائماً وهو دافع حب الاستطلاع وهذا الاستعمال فى الإسلام واجب، وليس متروكاً لاختيار الإنسان فأدوات التفكير فى الإنسان لا تقع خارج حدود مسئوليته بل هو مسئول عنها مسئولية مباشرة أمام الله سبحانه ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾[1].

وهؤلاء الذين لايستعملون هذه الوسائل فى وجوه استعمالها هم كالانعام بل هم أضل، قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[2].

وقد حكم عليهم بهذا الحكم لأنهم لم يستغلوا هذه الملكة أو هذه الملكات المودعة فكانوا كالانعام بل هم أضل لأن الأنعام لم تعط هذه الملكات، ومن الجائز جداً أنها لو أعطيت هذه الملكات لاستخدمتها فى وجوه استخداماتها. ومن ثم كان هؤلاء المعطلون لها أشد ضلالا منها .

٢- العمل على ترشيد العقل بالمعارف التى تجعله قادراً على وزن صحيح الامور من فسادها، وهذه المعارف التى تتضمن مايساهم فى انضاج

(١) سورة الإسراء آية (٣٦).

(٢) سورة الأعراف آية (١٧٩).

العقل وترشيده بلاتزيف، ولااكراه أو تعصب لشيء ما، أو وظيفة خاصة بل تفسح المجال للمواهب والقدرات كي تنتج وتترعرع.

هذا، وقد زود الإسلام عقول المسلمين بخير زاد، وقد حوت تعاليمه في هذا الشأن كل ماينمي فكر الإنسان. فقد دعت أحكامه إلى التأمل في كل مايدركه ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره. ويبني عليها نتائجه وأحكامه، وبذا يكون العقل حكما، والبرهان أساس العلم.

كما إنه في ذات الوقت عاب التقليد وذم المقلدين وانب من يتبع الظن وتقديس ما كان عليه الآباء من الباطل ...

٢- العمل على تنشيط وتشجيع وترويج نتائج اعمال العقل الصالحة حتى يحبب إلى الناس كل استخدام صالح للعقل.

كما يعمل الإسلام على تنشيط طاقات العقل وإزالة العوائق، والسدود الذاتية والبيئية التي تبدد جهده أو تهلكه.

والجدير بالذكر أن تعاليم الإسلام وقواعده في هذا الشأن تأخذ بيد البشرية لما فيه صالحها في الحاضر والمستقبل.

وهكذا أحاط الإسلام هذه النعمة الكبرى بسياج من العناية والرعاية [١]، وذلك لما لها من مكانة عظمى وأثر فعال في الرقي بالمجتمعات البشرية الى المستوى الراقي الذي يريده الله لها سعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) وليس هذا وحسب بل انه طلب من الانسان أن يؤمن عن طريق التفكير لا من طريق التقليد لان في التقليد تعطيلا لقدرة الانسان العقلي التي أنعم الله بها عليه وبهذا يتقرر فريضة التفكير في الاسلام (حول هذا راجع موقف الاسلام والكنيسة من العلم/ عبدالله الشويحي ص ٢٠).

مجالات الفكر التى حدد ها الإسلام:

وجد الإنسان على ظهر الأرض، وتطلعت نفسه إلى البحث فى مسائل عده، منها ماهو واقع تحت سمعه وبصره يحاول معرفة أسبابه وعلله، ويريد معرفة العنصر الذي تتعاوره التغيرات ، وتجرى عليه الظواهر المختلفة.

ومنها ماهو غير واقع تحت سمعه وبصره ،وإنما تطلعت نفسه إلى ماوراء هذا العالم المحسوس... تلك غريزة فى الإنسان تلح عليه إلا وهى غريزة حب الإستطلاع.

ولئلا يشت عقل الإنسان أو يضل تفكيره جعل الإسلام حدوداً لهذا العقل حفاظا عليه من التمزق أو التشتت ، وأمر بالتزام هذه الحدود والوقوف عندها.

فما هى هذه المجالات التى حدد الإسلام للعقل العمل فيها والدوران فى فلكها ؟، وللاجابة على ذلك ليست بالأمر العسير على من تصفح آيات القرآن الكريم، أو حاول الإطلاع عليها، فالمطالع لآيات القرآن الكريم يجد أن الإسلام قد وضع مجالات الفكر المتعددة حتى تعمل فيها هذه الملكة عملها وتؤتى ثمارها.

ومن أهم هذه المجالات التى دعا الإسلام إلى إعمال الفكر فيها النظر فى الكائنات ليصل الإنسان عن طريق التأمل الصادق والنظر الصحيح إلى أن خالق هذه الاكوان على هذا الاحكام والاتقان، ومدبرها على هذا النظام البديع لابد قوى قادر وعليم حكيم لايعجزه شيء ولايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

ولذا أمر الحق سبحانه بالنظر إلى الكائنات والتأمل فيما فيها من دقائق الصنيع وبدائع الأحكام والاتقان للوصول إلى هذا الغرض الأسمى، وذلك كما هو واضح في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ، والتي تنوع فيها الأمر بين النظر في الآيات الإنسانية والآيات الكونية.

ولكثرة هذه الآيات في القرآن الكريم أذكر منها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [1] ، وقوله سبحانه ﴿ فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[2]، وقوله سبحانه ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .. ﴾ الآيات إلى قوله تعالى ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب .. ﴾ [5].

(١) سورة الذاريات آية (٢١).
(٢) سورة الطارق آية (٧ :٥).
(٣) سورة الروم آيات (٢١ : ٢٥).
(٤) سورة البقرة آية (١٦٤).
(٥) سورة آل عمران آية (١٩٠).

وهى آية كريمة تدعو الى التدبر والتفكر فى ملكوت السماوات والأرض وهى من الأهمية درجة أن جعلت النبى (صلى الله عليه وسلم) يبكى وهو يقرؤها ويقول محذرا من التكرار الآلى أو التلاوة التى لاتتجاوز الحركة الميكانيكية للسان ومتواعداً من لا يتفكر «ويل لمن لاكها بين فكيه «لحييه» ولم يتأمله» يتفكر فيها »[١].

ومن الآيات الكريمات أيضا قوله تعالى :﴿قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض﴾ [٢]. ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شيء﴾ [٣]. ﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . . . ﴾ [٤]. ﴿وفى الأرض آيات للموقنين﴾ [٥].

وهكذا يطول بنا الحديث لو ذهبنا نتعقب الآيات والنصوص التى تحث العقل على التفكير وتفتح له مجالاته.

لكن ينبغى أن نفهم أن الإسلام لم يفتح الباب على مصرعيه بلا حدود أمام العقل يعمل فيما يشاء، ويتناول مايريد من المسائل والقضايا ، ولكنه حدده بما يتلائم مع قدرته البشرية المحدودة، وذلك حرصاً على العقل أن يضل أو يذل لذا حرم عليه الخوض في غمار ماوراء الطبيعة ، ولم يدع له أن يخوض لجة هذا البحر العميق فقد كفانا الإسلام مؤنه هذا البحث لأنه مهما حاول العقل البحث فلن يستطع ومحاولاته لاتجدى ، فرحمة به كفاه الإسلام

(١) راجع التفسير الكبير / الفخر الرازي ج ٢/١٣٤.

(٢) سورة يونس آية (١٠١) .

(٣) سورة الأعراف آية (١٨٥).

(٤) سورة العنكبوت آية ((٢).

(٥) سورة الذاريات آية (٢٠).

ذلك وجعل مجالات بحثه فيما يبصره ويراه يفكر فيه ويستنتج منه، أما ماعداه فقد بين له الإسلام وجه الحق فيه، وقال كلمته فيه وحيا إلاهيا قام على صدق البرهان والنظر .

ووجد المسلمون الأوائل في مصدر الاسلام « القرآن والسنة » مايجب أن يعرفوه في منطق جلى مما أجهد الفلاسفة القدماء من اليونانيين وغيرهم ... وإنما كان ذلك لالتقاء الحقيقة في صفائها بالفطرة في نقاوتها، إذ جاء القرآن في أمهات المسائل الفلسفية بالقول الفصل ، وذلك على الحق الذى جاء به بالحجج المنطقية التى يستقر عليها العقل والقلب .[1].

فالاسلام قد انتهى من وضع « الميتافيزيقا» ماوراء الطبيعة » وضعا نهائيا، ولم يترك للعقل مجالا للأجتهاد في أكثر نواحيها ، وحدد معالمها تحديدا كاملا ونهى أشد النهى عن تجاوز تلك المعالم [2]، وما ذلك الا مصلحة للعقل لانه لو تعداها لضل، ومن ثم كان قول النبى (صلى الله عليه وسلم): تفكروا في آلاء «خلق» الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » [3].

فهناك أمور يجب أن يعزل العقل عنها ، وهى ذات الله، وحقيقة صفاته وما وراء الطبيعة عموما، ولكى نبرهن عمليا على حكمة الاسلام من ذلك يكفينا تصفح التاريخ الفكرى للانسان في جانب ماوراء الطبيعة.

فالتاريخ يقرر أن تناول هذه الأمور بالعقل المجرد لم يأت بحصاد سوى هذا الكم الهائل من المتناقضات والمتنافرات في مثل هذه القضايا.

---

(١) أ.د / محمد بيصار .. من تقديم لكتاب ابن سينا بين الدين والفلسفة ص ٣ د/ محمود غرابه.

(٢) مراجع نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام / علي النشار جـ١/ ٤٨.

(٣) رواه الأمام السيوطي في الجامع الصغير جـ١ / ١٣٢.

فالله – سبحانه وتعالى – مثلا يعلم الكون عند طائفة، ولا يعلمه عند أرسطو، والكل أساسه العقل وسبيله التنزيه ...، ومثل ذلك كثير من المناقضات التى تدلل على اضطراب العقل وانحرافه عن جادة الصواب حينما حاول أن يسلك فى مسائل ما وراء الطبيعة بمفرده، وبمنأى عن وحى السماء، وتعاليم الرسل عليهم الصلاة والسلام ومثل هذا التناقض والتنافر يسبب للانسان نوعا من القلق النفس نتيجة لتضارب العقل المجرد فى تناوله لقضايا مابعد الطبيعه .

ولا شك أن مثل هذا التضارب قد يؤدى بالانسان إلى أن يقع صريع الشك والتردد، والحيره، واللاإراديه، وهذا ما تحاشاه الاسلام حينما حدد مجال عمل العقل. والجدير بالذكر هنا أن فى حجب العقل عن هذا المجال معقولية، لأننا إذا ما سألنا العقل المجرد المنصف نفسه أيهما أليق بمقام العقل أن يصرف جهده فيما لا جدوى فيه ولا فائدة ترجى من ورائه؟ أم اعمال العقل فيما يثمر فيه ويبدع ؟ أقول إذا ما سألنا العقل المنصف هذا السؤال فإنه لا يتردد على الفور فى الإجابة بأن الاليق بمقام العقل أن يصرف إلى مايبدع فيه بعيدا عن مواطن الحيرة والشك والتردد .

والتاريخ الإسلامي يدلل على هذه القضية فيذكر لنا الغزالي – رحمه الله – وكفاحه فى هذا السبيل ضد الفلاسفة فى محاولته الجريئه فى تهافت الفلاسفة الطريف فى هذه المحاولة أن الغزالى = رحمه الله – كان يشارك الفلاسفة فى اعتقاد مضمون بعض القضايا كخلود النفس لكنه يخالفهم فى السبيل إليها، فقد ركنوا اليها سبيل العقل المجرد .. وبهذا استطاع رحمه الله – ملاحظة قصور العقل فيما وراء الطبيعة .

كذلك فإن تاريخ الفلسفة الحديثة يدلل أيضا على هذه القضية، فقد لاحظ المفكر الالمانى «عانويل كانت» تناقص العقل النظرى فى هذه القضايا مما دعاه إلى الشك فى مقاييس هذا العقل النظرى من حيث انها لايطمأن إليها فى الحكم فيما وراء الطبيعة »[1].

إذن لا مجال للعقل فى أمور ماوراء الطبيعة ، فقد كفاه الإسلام مؤنة هذا البحث حيث حدد معرفة هذا الغيب عن طريق الوحي الإلهى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ماشاء الله كشفه للإنسان كشفه عن طريق الوحى ؛ ومالم يشأ فلا ، وإذا كان أمر العقل كذلك فإن بإمكاننا -هنا- أن نقرر أن غريزة التفكير التى أساسها العقل المودع فى الإنسان تجرى على سنن الغرائز الإنسانية الأخرى من حيث الإلحاح وتطلب الإشباع.

ومن هنا مستها يد الاسلام بالاعلاء والابدال من حيث توجيهها الوجهة التى تنتج فيها وتثمر.

فلم يكبت الاسلام العقل ، وإنما تركه ليعبر عن نفسه فى قضايا الكون بحثاً واستنتاجاً متوخيا الغايات التى يرسمها الاسلام فى ذلك وهنا قد استنفذ الاسلام طاقة العقل فى عمل يحفظ على العقل استقامته ، وعلى الحياة نظامها المستقيم، وعلى النفس البشرية توازنها ، فهنا منفذ لافراغ الطاقة الفكرية التى لابد وأن تعمل عملها وتؤتى ثمارها .

والعقل بعد ذلك محجوب خاصه فيما يتعلق بالمبدأ والمصير، والانسان وإن كان مدفوعا إلى حب الاستطلاع عموما فإن الاطلاع على الغيب ومحاول كشف استاره جانب هام فى تكوين العقل الانسانى، ومن ثم جاء مايمكن أن يقابل الاعلاء فى الغرائز الحيوانيه من حيث استصحاب الوحى

(١) مذكرات في علم النفس د/ محمود عبدالمعطي ص ٧٣.

العقل فى هذه المجالات، والأخذ بيده بعيدا عما فيه مصرعه، ولكن ذلك ليس عن طريق كشف الحقيقه الغيبيه كاملة ، وإنما عن طريق الاقتناع بها، والاستدلال عليها لتقوية الايمان بها ، مع ملاحظة أن العقل فى هذا الناحية لا يسير وحده وإنما هو مستنير بنور قيادة الوحى وتوجيهه.

ومن هنا أخذ موضوع التفكير مكانه فى علم النفس كغريزة نفسية .. وأحاطها الاسلام بالعناية والرعاية حتى يحفظ على الانسان توازنه فلا يقع صريع التوتر والقلق النفس ... على أنه مما لاينبغى اغفاله أن عزل العقل عن قضايا ما بعد الطبيعة ليس عزلاً تاما، وإنما هو عزل عن معرفة الكنه والذات .. لا عزل عن التناول والاقتناع .. فقد أخذ الاسلام بيد العقل إلى قضايا مابعد الطبيعة استدلالاً عليها ليؤمن بها ، لان العقل سند متين للإيمان بحيث لايقبل التشويش ولاتنال منه الشبهات.

فقد استصحب الاسلام العقل مثلا إلى قضيه وجود الله ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[1] ذلك انه من الواضح لدى العقل أن المعلول لايمكن أن يوجد بدون عله أعنى أن لا يكون هناك سبب لوجوده لمنافاة ذلك بداهة، ومن ناحية أخرى يتقرر لدى العقل بنفس الدرجة أن الشيء لايمكن أن يكون هو السبب فى وجود نفسه وإلا كان متقدما عليها فى الوجود باعتباره سببا، ومتأخراً عنها ، وفى هذا استحالة عقليه .

فإذن لا بد أن يكون هناك خالق موجود هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا يستصحب القرآن الكريم العقل إلى طريق الاستدلال الصحيح على هذه القضية لشبع نهمه، ويلبى رغبته كأداة للفكر تتطلب الاعمال والاقتناع.

(١) سورة الطور اية (٣٥).

وقد يستصحبه إلى ذات القضية عن طريق آخر، وهو طريق ملاحظة مايظهر للعقل والحواس فى الكون الواسع من مظاهر العناية والتدبير، وتتكون مادة الدليل هنا مما يمكن أن يلاحظه الانسان من تناسق وتضامن، وانسجام، وتدبر محكم وعناية كبيرة بكل صغيرة وكبيرة، وترابط بين أجزاء العالم ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[1].

وقد يضع العقل الانسانى المجرد قضيه البعث والنشور موضع الرد والتردد ﴿ أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أو أباؤنا الأولون ﴾[2].

غيب ملح على عقل الانسان يرفض الايمان به لأول وهله ، ولكن القرآن يستصحب العقل ويقرب إليه القضيه ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فاحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[3].

﴿ والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ [4]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمات فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٢).

(٢) سورة الصافات آية (١٦، ١٧).

(٣) سورة فاطر آية (٩).

(٤) سورة ق آية (٧ – ١١).

هذا القدر من التناول هو الذى يقع فى مقدور العقل بالنسبة لمثل هذه القضايا ومن ثم يتضح أن الاسلام لم يضن على العقل بشىء هو فى إمكانه، بل حاول أن ينمى ادراكه، ويوجهه الوجهة الصحيحة ، وهذا التحديد لمجال العقل فى الاسلام يجعل مجاله الحقيقى هو الكون بعناصره ومظاهره بحثا واستنتاجا.

لكن يرد هنا سؤال هام وهو لماذا جعل الرسلام مجال بحث العقل فى الاء الله وخلقه الظاهر ، وماعلة هذا البحث وأهدافه؟

إن الامر بنظر العقل وتدبره فى الكون يأتى لهدف وغاية عظمى تكمن فى أمرين جليلين:

اولهما – تقوية الإيمان عن طريق الاستدلال على قضايا عقديه ومسائل إيمانية .

ثانيهما– تسخير ماسخره الله لخلقه من خامات هذا الكون وامكانياته، وهنا يلعب الفكر دوراً هاماً فى تلبية وإشباع دوافع فسيولوجية ونفسية بالنسبة للإنسان من الطعام والشراب والسكن وغيرها.. وقد سخر الله سبحانه لناما فى السماوات والارض جميعا منه. ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (١). ﴿فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (٢).

ولا شك أن أداة البحث الأولى فى هذا الميدان هى العقل المبتدع المكتشف فهو اداة اشباع ميول الانسان ومطالبه المتعددة، وإذا ما تباطأ

(١) سورة الجاثية اية (١٣)

(٢) سورة الملك اية (١٥)

الانسان فى مجالات استعماله فإنه يكون مقصرا فى واجب مسئولياته ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1].

فوظيفة الملكة العقلية هنا هى التمكن من تسخير ما سخره الله سبحانه للإنسان من مجالات الكون الفسيح وامكانياته وخاماته المتنوعه، وما يذخر به من صنوف النعم التى أودعها الله هذا الكون الفسيح

(فقد أودع الحق سبحانه كونه كل الحلول لكل المشكلات المادية بلا استثناء ودعا العقول الى البحث والتحرى والتجريب لاستخراج هذه النعم والاستفادة منها فحدد الطريقة التى تنكشف بها هذه النعم وبين أنها - أى النعم - كافية لحل كل المشاكل البشرية)[2] ... قال تعالى « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير »[3].

﴿ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾[4]. إلى غير ذلك من آيات كريمات من كتاب الله تعالى فواجب على الانسان استغلال هذه الملكة الكريمه حتى يحقق اسعاده ويلبى حاجاته ويحفظ توازنه النفسى والجسمى عن طريق اشباع دوافعه المتعددة وقضاء حاجاته المتنوعه.

وهكذا يطلب الدين الاسلامى من العقل الانسانى النظر فى الكون بكل ما أوتى من قوه، وان يستعمل كل الوسائل التى يستطيع أن يسخر بها الأرض والبحار والجو ، وراحة الانسان.

---

(١) سورة الاسراء آية (٣٦).

(٢) حول هذا راجع المدخل لدراسة الاعلام الاسلامي أ.د/ عماره نجيب ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٣) سورة لقمان آية (٢٠). (٤) سورة فاطر آية (٣).

كما يعمل الاسلام على تنشيط فطرة البحث، وتحفز العمل على قيامها بتعميق الايمان بوجود الحلول والاجابات فى سنن الكون وأياته حتى يصبح طريق الوصول الى اكتشاف نعم الله والاستفادة منها واضح ومتفق مع الفطرة.

خطوات التفكير:

من خلال التعريف السابق للتفكير تبين لنا أن للتفكيرخطوات تتمثل فى خمس مراحل أساسية «هى»:

(١) وجود مشكلة يشعر بها الفرد وتتطلب منه الحل، ومن البديهى أن تكون هذه المشكلة ذات أهمية كبرى لدى هذا الفرد، بمعنى أن وجودها يثير فيه دافعا يدفعه إلى التماس الحلول لها حتى يصل إلى هدفه الذى يريد تحقيقه، فالشعور بوجود هذه المشكلة هو الخطوة الأولى فى عملية التفكير.

(٢) تحديد المشكلة وحصر نقاط الصعوبة فيها، والتى تقتضى تركيز الجانب الأكبر من التفكير عليها، ومن الطبيعى أن يقوم الانسان بجمع البينات والمعلومات المتعلقة بموضوع مشكلته، ويقوم بفحص هذه البيانات لمعرفة مدى ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لموضوع المشكلة مما يترتب عليه استبعاد غير الملائم، واستبقاء الملائم مما يساعد الشخص على توضيح المشكلة وفهمها مما يمهد لوضع فروض لحلها.

(٣) فرض الفروض[1] الممكنه لحل هذه الفروض واستعراض الحلول المختلفه لها – وقد تطرأ بعض هذه الفروض اثناء جمع البيانات حول موضوع المشكلة على أن يدون هذه الفروض.

---

(١) والفروض عباره عن حل مقترح للمشكلة موضوع التفكير.

(٤) مناقشة هذه الفروض لرؤية مدى انطباق كل منها على عناصر المشكلة، واستبعاد الفرض الخاطىء ، والابقاء على الفرض الصحيح إن وجد ضمن قائمة الفروض وإلا طرحت هذه الفروض جانبا، وبحث عن غيرها.

ومن الواضح أن مناقشة الفروض تتم فى ضوء مالدى صاحب المشكلة من معلومات وبيانات فى الخطوات السابقه، ثم تتكرر عملية اختيار الفروض واختيارها حتى يتم الوصول إلى فرض مقبول وملائم .

(٥) وبعد استبعاد الفروض غير المقبوله أو غير الملائمة يتم تطبيق الفرض الصحيح للوصول إلى الحل وانهاء المشكلة .

وهذه الخطوات التى يمر بها التفكير تشبه إلى حد كبير خطوات المنهج التجريبى [١].

والامثلة التطبيقية لعملية التفكير بشكلها السابق كثيرة ونمارسها كثيراً فى حياتنا اليومية وإن كانت عملية الفصل الرياضى فى الخطوات غير ملاحظة على وجه الدقه .

والقرآن الكريم يسعفنا فى هذا المجال بمثال تطبيقى حى عن أبى الانبياء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – فى تناوله لمشكلة الالوهية ، والوصول إلى إجابة شافيه على سؤال فحواه من هو الإله الحقيقى ؟

---

(١) راجع مذكرات في علم النفس / أحمد سهنا ص ٥٥، والقرآن وعلم النفس ص ١٢٨ وحول هذا أيضا راجع كتاب علم النفس للصف الثالث الثانوي وزارة التربية والتعليم فصل التفكير – عملية حل المشكلة ط ١٩٩٧.

والنسق القرآني الذي يحدثنا عن ذلك . هو قول الحق سبحانه حكاية عن ابراهيم عليه السلام ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهه إني أراك وقومك في ضلال مبين ... وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني برئ مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ (١).

لقد بنى سيدنا إبراهيم – عليه السلام – نظره على بطلان عبادة الأصنام التي كان يعبدها قومه بأنها لا قيمة لها ، فلا حول لها ولا قوة ، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ومن ثم فلا يمكن أن تكون آلهة لأن من صفات الإله القدره ، والقوة ، والهيمنه والاحياء والاماته ، والنفع والضر .... وغير ذلك لذا عنفهم بقوله ﴿ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ (٢).

وفي سياق آخر ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين – قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا أباءنا كذلك يفعلون ﴾ (٣) ... ﴿ قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين ﴾ (٤) وانطلاقا من شعوره – عليه السلام – ببطلان عبادة الأصنام وعدم احقيتها في العبودية ثارت في نفسه مشكلة أخذت في الالحاح على عقله وتدهم تفكيره

(١) سورة الأنعام آية (٧٤ : ٧٩).
(٢) سورة الأنبياء آية (٦٦ : ٦٧).
(٣) سورة الشعراء آية (٧١ – ٧٤).
(٤) سورة الأنبياء آية (٥٤).

هذه المشكلة فحواها من هو إله الكون إذا كان أمر الأصنام كذلك ؟ وشعر سيدنا إبراهيم «عليه السلام» بوقع هذه المشكلة تدفعه إلى التفكير فيها بغية الوصول إلى معرفة إله الكون وفاطره ، وقد ساعده على ذلك فطرة سليمه وروح صافيه وعقل راجح، وقبل ذلك وبعده هداية الله وتوفيقة ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الملاحظه وجمع المعلومات، فأخذ فى ملاحظة الظواهر الكونية المختلفه فى السماوات والارض لعله يهتدى إلى معرفة الإله .

فنظر فى الكواكب ، والشمس والقمر وغيرها .. ﴿ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض . وليكون من الموقنين ﴾ (١).

وفى أثناء مرحلة الملاحظة جاءت مرحلة فرض الفروض (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا متلألأ فى ظلماء السماء ففرض إنه هو الإله ، ولكن الكوكب أفل والأفول تغير والتغير ينافى الألوهية ، فاستبعد "عليه السلام" هذا الفرض ثم وجد القمر ساطعا فى جوف الليل يبدد ظلامه ، وينشر ضياءه فوضع فرضا مؤداه إن هذا هو الإله، ولكنه استبعده حين أدرك أفوله الذى لا يتناسب ومقام الألوهية ، ثم رأى الشمس ساطعة سطوعا يربو فى بهائه على سطوع الكوكب والقمر، ففرض "عليه السلام" فرضه معللا هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت الشمس ، قال : ياقوم إني بريئ مما تشركون.

ووضع فرضا آخر مؤداه أن الاله لابد أن يكون من فوق الكل خالق السماوات والارض، فالكوكب فى حاجة إلى مكوكب ، والسماوات والارض تحتاج إلى فاطر وليس ذلك بالطبع هو الاصنام التى يعبدها هؤلاء القوم، ولا مالاحظه « عليه السلام » من الظواهر الضخمه متعددة الوظائف والاغراض.

---

(٤) سورة الأنعام آية (٧٥).

وجاءت النتيجة إنه لا إله إلا الذى فطر السماوات والارض ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ (١)

وهذه النتيجة كانت فرضا جمع ».يدنا ابراهيم «عليه السلام» حوله الملاحظات والبيانات عن الظواهر الكونية ، فلم يجد ما يعانده أو يضاره بل وجد أن جميع ما يشاهده من بديع خلق الله تعالى وصنعته.

وما فى الكون من نظام محكم يدل على وجود إله حكيم قادر قوى قاهر فاطر سبحانه وتعالى ، وقد سار إبراهيم «عليه السلام» فى رحلته الفكريه هذه بهدى من هذا الإله الفاطر ولذلك تجده يقول لقومه ﴿ أتحاجونى فى الله وقد هدان ﴾ (٢).

والحقيقة إنه سواء كان «عليه السلام» فى هذا المقام ناظراً أو مناظرا. بناء على الاختلاف فى ذلك، فإن هذا السياق يمثل نمطاً من أنماط التفكير الراقى للعقل المستنير ، يعلمنا القرآن من خلاله كيف يهجم العقل على المشكلة ، ويتناولها فى كلياتها وجزئياتها، والقرآن ملىء بمثل هذه الانماط التى يبغى من ورائها الهداية والارشاد لطالب كل منهما ..

---

(١) سورة الانعام آية (٧٩).

(٢) سورة الأنعام آية (٨٠) وحول هذا راجع تفسير ابن كثير جـ ٢/١٥١، ١٥٢.

الخطأ فى التفكير - أسبابه ، وعلاجه:

بعد ماتبين لنا من مكانة التفكير فى الاسلام ، فإنه من الواجب على الانسان أن يجعل بقدر المستطاع تفكيره صائبا هادفا لما فيه صلاحه وصلاح مجتمعه، ولايجب عليه أن يعطل عقله أو هذه الملكه العظيمة مرضاة لمخلوق مثله أو خوفا منه، مهما كانت قوته حتى لو كان المخلوق جمهرة من الخلق تحيط المجتمعات وتتعاقب مع الاجيال وإذا كان هذا هو الواجب على الإنسان إلا أن هناك من البشر من ضل عقله وفكره فكان خطأه وضرره، والخطأ فى التفكير له أسبابه المتعدده، « وقد استقصى القرآن الكريم هذه الأسباب، كما استقصى خطاب العقل بجميع وظائفه وملكاته.. ولكنها قد تتجمع فى ثلاثة أسباب كبرى تعد بمثابة الاصول التى تتشعب منها بقية الاسباب الاخرى، فمن سلم منها أو شك أن يسلم من كل سبب يحجر على عقله، ويأخذ السبيل على تفكيره فلا يهتدى إلى رأى سواه.

ولعل أكبر هذه الاسباب «عبادة السلف» ثم الاقتداء الاعمى بأصحاب السلطة الدينيه ثم الخوف المبين الظاهر لاصحاب هذه السلطة» [1].

والاسلام يستقصى أسباب الخطأ فى الفكر، ويعالجها بمنهج حكيم بحيث يعود الفكر سليما مستقيما.

فبالنسبة للسبب الأول - عبادة الاباء والسلف وتقديس أرائهم، والاقتداء الأعمى بهم دون ما نقد أو تمحيص فالاسلام لايقبل أبدا من المتدين به أن يلغى عقله ليجرى على سنن أبائه واجداده فى تفكيرهم ومنافع حياتهم فلكل جيل تقاليده وعاداته، وقد حدثنا القرآن الكريم فى كثير من

---

(١) حول هذا راجع « التفكير فريضه إسلاميه» العقاد ص ٢٢.

آباته عن عاطفة حب الآباء، وكيف إنها إذا ما استبدت بصاحبها تعمل على شل حركة التفكير ومحاصرته حتى كان ذلك مما يمثل عقبة كبرى كئوء أمام دعوات الأنبياء والرسل "عليهم السلام" كما أنها لاتزال تمثل عائقا هائلا أمام حركات الاصلاح التى تهدف إلى التسامى بحياة الانسان، فكثيرا ما يواجه المصلحون بتمسكات سلفيه لها قوة رسوخ فى النفس مما يحتاج إلى جهد جهيد فى سبيل محوها واحلال الصالح محلها سواء كان ذلك من الانسان الذى رسخت لديه هذه العادات أو من المصلح الذى يهتم بأمر إصلاح الناس.

والقرآن الكريم يعرض لذلك فى المقام الحديث عن الرسالات التى أرسل الله بها رسله الكرام حينما عاندها المعاندون بحجة تمسكهم بعقائد سالف آبائهم.

قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون ﴾[١].

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالو بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون ﴾[٢].

﴿ قالوا أتعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا ﴾ [٣].

﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ [٤].

---

(١) سورة المائدة آية (١٠٤).

(٢) سورة البقرة آية (١٧٠).

(٣) سورة الأعراف آية (٧٠).

(٤) سورة يونس آية (٧٨).

﴿ بل قالوا إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾(١).. إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم، والتى بينت ما كان يعانيه الرسل الكرام فى مواجهة هؤلاء المدعوين، وإن أشد ما كان يحنقهم من دعوة الرسل انهم يسفهون فى نظرهم أحلام أباؤهم وأجدادهم .. فكان غضبهم كله وتحريضهم على دعواتهم بسبب فهمهم الخاطىء ان هذا الرسول إنما جاء بما أتى به ليسفه أحلام الاباء والاجداد ويستخف بعقولهم، وهذه حجة واهية علقت بعقول هؤلاء، وقد كان تمكن هذه الافكار الباليه من عقول هؤلاء شديداً لان الانسان كائن اجتماعى يعيش فى بيئته متأثرا بما يموج فيها. وكلما طالت المده كلما رشحت هذه الافكار» لاعتمادها أولا – على مايكنه الانسان لأبائه من حب واعتقاد الصواب دائما ثم لاعتمادها ثانيا – على ما فى طبيعة الانسان من ميل إلى التأثر بالجماعة التى يعيش فيها ، وبعقائدها وافكارها، حتى تصبح هذه بالنسبة للانسان فى قوة مايكتسبه الانسان من بيئته من دوافع نفسيه واجتماعيه .

وبقدر قوة هذا السبب وصلابته يوجب الاسلام ان تكون قوة العقل ومقاومته له « فالاسلام حين يأبى على المسلم أن يعنو بعقله لهذه السطوة الجامحة يعطى العقل كل الحق فى مقاومتها، وليس ذلك فقط، وإنما يمد هذا الانسان بما يعينه على هذه المقاومة بالحجج والبراهين» (٢)، كما أنه لايقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنن أبائه واجداده.

---

(١) سورة الزخرف أية (٢٢ ، ٢٣).

(٢) حول هذا راجع التفكير فريضه اسلاميه / العقاد ص ٢٥ ومذكرات فى علم النفس ص ٨٦

وهو حين يكلفه بالتحرر من ربقة عبودية السلف بآرائهم يعينه ويضع في يده السلاح .. ولا يحق للانسان حينئذ أن يجعل من نفسه ضحية مستسلمه لما درج عليه أسلافه من جهاله.

والتاريخ الاسلامي يمدنا بأمثلة رائعة فى هذا الباب فسيدنا (سعد بن أبى وقاص) رضى الله عنه - حين يعلن إسلامه تفترض عليه أمه لانه ترك دين أبائه، وصبأ ودخل دين « "محمد" - صلى الله عليه وسلم - فيأبى سيدنا سعد - رضى الله عنه - ترك دينه الجديد، والانصياع لأمر أمه، فتضرب عن الطعام والشراب والظل حتى يرجع ولدها إلى دين أبائه، ولكن سيدنا سعدا كانت قد رسخت في قلبه عقيدته الجديده بمبرراتها العقلية التى رجحت عنده على مايفتقده الاباء والاجداد فى القوة والرسوخ، لذلك لم يأبه بها، ولم يكترث لعنادها وغلوها فى حبها لعقيدة أسلافها ..... وهكذا العقيدة إذا خالطت بشاشتها القلوب فلا يستطيع أحد زحزحتها مهما كانت قوته ، وهى تأبى على المرء أن يحيل أعذاره على أبائه واجداده، والإسلام ينعى على هؤلاء الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مؤنة العقل لانهم ورثوا من أبائهم واجدادهم عقيدة لا عقل فيها .. ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ (١).

وأما عن السببين الثانى والثالث. وهما - تسلط السلطة الدينية المتمثله في الاحبار والكهان مما يدعو إلى الاقتداء بهم والخوف منهم حتى كان لهما التأثير الكبير فى شل حركة التفكير درجة أن من أراد التفكير أو حاول كان هلاكه ودماره.

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٠).

فإن الدارس لتاريخ الكنيسة، والصراع الداهم بين الدين والعلم يعلم ذلك جيدا، وكيف أنهم قتلوا الكثيرا من العلماء الذين حاولوا الادلاء بأرائهم وأفكارهم .

«وأيا كان الرأى فى تفاوت القوى التى يخضع لها العقل، وتذهله عن حقه أو عن واجبه في التميز والنهوض بالتبعة، فالأمر الذى لامرية فيه أن التحذير من فساد الكهان والاحبار خليق أن يناسب الخطر الذي يخشى من فسادهم أينما كانوا وكثيراً مايكونون »[1].

وقد بدأ الإسلام بالتحذير الشامل من هذا الفساد فأسقط الكهانة، وأبطل سلطان رجال الدين على الضمائر، ونفى عنهم القدرة على التحريم والإدانة والغفران ثم نبه الى سيئاتهم، وعاقبة الذين استسلموا لخداعهم، وكثيراً منهم خادعون ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا الها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[2].

ومن الانصاف أن نقرر أن الاسلام من البداية قد أسقط الكهانة، وأبطل سلطان رجال الدين ، ونفى عنهم القدرة على التحليل والتحريم، والغفران، وما إلى ذلك مما ظهر لدى الكهنوتية الصليبية فى العصور المظلمة التى حرفت فانحرفت.

---

(١) التفكير فريضة إسلامية / العقاد ص ٢٨.

(٢) سورة التوبة آية (٣١).

ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً أن الإسلام لايقبل أن يحرم أحد شيئاً لم يحرمه الله تعالى ولو على نفسه حتى لو كان ذلك نبياً مرسلاً مهما كانت دوافـــع هذا العمل وقصة التحريم خير شاهـد ﴿ ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك . ﴾ (١).

وإذا كان ذلك بالنسبة لتنظيم العلاقة بين الإسلام والعقل، فإنه فى ضوء ماتقرر فى مجال العقل بالنسبة لوضعه فى الإسلام فإن اللهوت الكهنوتى الصليـبى قـد انحـرف عن رسـالة الأديان فلم يمـيـز بين الاختصاصات، وإنما دس أنفه فى الكبير والصغير والحقير من شئون الكون والحياة مما جعله يملى على الناس حقائق تفصيلية فيما يتعلق بنظام الكون ، وجعل الخروج عن هذه القوانين كفراً وبهتاناً مما جعله يقف حجر عثرة أمام حركة الفكر عند علماء الغرب فى العصور الوسطى الأمر الذى أدى إلى كبت غريزة التفكير فى الإنسان والتى ولدت انفجاراً عنيفاً كان على اثره أن نادى العلماء هناك بأن الدين عائق لحركة الفكر فرفضوه، وأقاموا نهضتهم العلمية على أنقاض ما سموه ديناً وما هو من الدين الصحيح فى شىء ، بل إن الدين الصحيح منه براء، بدليل أن مناهج العلم التى كانت وقود الثورة العلمية كانت وليدة دين صحيح تواكبت معه، وتوافرت على الرقى بحياة الإنسان مشبعة غرائزه وميوله، وأعنى بهذا الدين الإسلامى الذى حمله المسلمون الى أوربا ثقافة غزيرة أنارت للغرب طريقه، بل كانت العامل الأساسى فى ثورته على الجهل والكبت والسبب فى ذلك قطعاً هو براءة الإسلام مما شاب الكهنوتية الصليبية المحرفة من انحرافات وضلالات.

(٣) سورة التحريم آية (١).

ولا عجب فى ذلك فلقد كان عيسى « عليه السلام » وأمه آية [١].

تستوقف الفكر وتُحيى قوة العقل للتفكير والتدبر لكنهم فى الغرب برغم اعترافهم أو اعتراف المنصفين منهم بأثر الثقافة الإسلامية يرمون الإسلام بالجمود والحجر على العقول غافلين عن الفرق الجوهرى بين الإسلام كدين نقى سوى صحيح، وبين الكهنوتية المحرفة ومن هنا وقفوا ضحية التعميم الشائن وهو بدوره خطأ فى الفكر ناشىء عن عدم التثبت، وعدم جمع المعلومات الصحيحة المتعلقة بهذه القضية .

* - **كذلك** - من الاسباب المعوقة لحركة الفكر والمتصلة بالجماعة مايعرف بالإجتماع الإنسانى، أو التفكر الجماعى الذى يشوش العقل الفردى ويعمل على إعاقة العقل عن الوصول إلى نتائجه من طريق الفكر الصحيح ، ولذلك حث الإسلام فى المسائل الدقيقة على أن يخلو الإنسان إلى نفسه أو إلى أحد ممن يثق فى أمانته فهو يعزل الإنسان عن الجماعة ويحول دون تأثيرها عليها تأثيراً سلبياً ، ونقرأ فى هذا المقام آية من كتاب الله الكريم تهيب بالفكر أن يقوم بعمله فى جو بعيد عن التشويش أو العقل الجماعى، قال تعالى :﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنه إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾[٢].

ذلك لأن الأحكام التى تصدر عن الاجتماع فى مثل هذه المسائل الدقيقة تكون غالباً مشوشة حيث تتحكم فيها اتجاهات طائفية أو قبلية أو سلفية أو نفعية.. ولذلك يهيب الإسلام بالفرد أن يكون متحررا من عصبيته حتى يكون أقرب إلى الحق لا سيما فى المسائل ذات الصبغة الخاصة التى تتأثر بالعصبية كمسائل الاعتقاد.

وإلا فإن الإسلام يحبذ الشورى ويدعو إليها أيضاً حفاظاً على الفكر من أن يستبد به فرد واحد متعصب، وهو فى حد ذاته خطر لايقل عن خطر التشويش الجماعى.

---

(١) قال تعالى « وجعلنا ابن مريم وامه آية ......» سورة المؤمنون آية (٥٠).

(٢) سورة سبأ آية (٤٦).

* **كذلك** من مواطن الخطأ فى الفكر التى يتحاشاها الإسلام عدم الوضوح فى المقدمات أو عدم كفاية المعلومات حول المشكلة التى تعرض للفكر، ويريد أن يدلى فيها بحكم ما، فالله أن يوصى بالتبين أو التثبت حتى يأتى الحكم متوازناً ويعطى نتائج صحيحة، وذلك كما قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين ﴾[1].

وهذه الآية الكريمة تعالج مسألة جمع البيانات حول المشكلة هى خطوة من خطوات الفكر لدى علماء النفس ، وليست الآية الوحيدة فى هذا المضمار فهناك أيضا آيات كثيرة غيرها كقوله تعالى: ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسئولاً ﴾[2].

كذلك الآيات التى تنفر من اتباع الظن والهوى وهى كثيرة أيضاً منها مثلاً قوله تعالى ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[3]. ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾[4].

* العواطف والانفعالات : كذلك من أسباب ورود الخطأ فى التفكير العواطف والانفعالات حيث تلعب العواطف دوراً هاماً فى توجيه تفكير الإنسان وسلوكه ، ويظهر هذا التأثير فى عمليات الادراك والتذكر حيث إنهما يتأثران إلى حد كبير بالعواطف والميول، فيتركز ادراك الإنسان مثلاً على مايحبه ، ويكاد ينصرف تماماً عما يكره.

(١) سورة الحجرات آية (٦) .

(٢) سورة الإسراء آية (٣٦).

(٣) سورة ص آية (٢٦).

(٤) سورة النجم آية (٢٨).

كذلك فى عملية التذكر فإن أقرب مايمكن استحضاره سريعاً هو الذكريات المفرحة أو المبهجة ..."[1] وهكذا.

فالعواطف إذن تؤثر فى سير الأفكار واتجاهها ... ويتركز تأثير العاطفة أكثر وأكثر إذا ما سادت هذه العاطفة أو تلك على ماسواها.

وقد تقف العاطفة بمثابة الظهير الداعم لجهود كل من العالم، والفليسوف فكلاهما يستمد بعض وسائل تنشيط تأملاته من العاطفة، إذ أن الاهتمام الذى تثيره الأفكار لا يكون قوياً إلا بمقدار تأثيرها فى الوجدان، والحالات الوجدانية ذات تأثير كبير فى عمليات الذاكرة إذ تزداد سهولة الحفظ وتثبت الذكريات بمقدار ماتثيره مادة الحفظ، والحوادث التى نشاهدها من تأثير واهتمام، وبمقدار تلاؤمها مع رغباتنا وحالتنا العاطفية التى نعيشها.

وفى هذا المقام لايفوتنا أن نذكر أن هذه المسألة قد مستها يد الإسلام وأخذت توجيهاته بيد الإنسان إلى الطريق السليم، وعملت على إلا تتعدى العاطفة الحد المعقول أو المقبول من تأثيرها ، فهى أحيانا توجهها من البداية فتحدثنا عن عاطفة الحب مثلاً بأنها .

إذا ماقويت وكانت مظنة التأثير المشبه أوجب الحذر منها وتلافى آثارها ففى الأحكام مثلا وهى حقل خصب لتأثير العاطفة ترى الإسلام بتوجيهاته يحذر من السير وراء هذه العاطفة يقول تعالى: ﴿ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[2].

---

(١) راجع مذكرات في علم النفس ص ٤٩ ، وعلم النفس / أحمد مهنا ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة ص آية (٢٦).

كذلك يجب ألا يحمل بغض الإنسان أو كراهيته على أن ينحاز للآخر أو غيره، فلا ينساق وراء عاطفته فيجنح فى الحكم إلى الظلم أو التعدى ويكفى أن نستحضر فى هذا المقام قوله الحق سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[1].

لذلك كله تأمرنا شريعتنا السمحة إلا تتدخل عواطفنا فى أحكامنا وأفعالنا وإذا كان بغض أحد المتحاكمين لسبب أو لآخر يجب إلا يحملنا على التنكر للعدل كذلك فإنه فى نفس الوقت لا ينبغى أن يحملنا الحب على نفس الشيء ...

ووصية سيدنا عمر رضى الله عنه . لأبى موسى الاشعرى قاضيه .. أس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ... «يملء دويها الأفاق دعوة إلى العدل فى الحكم بدون محاباة أحد على حساب أحد مهما كانت درجة الحب أو القرابة أو الجاه ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو مثلنا وقدوتنا فى ذلك كله حينما قال « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. والذى نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ...»[2].

وذلك لأن الحاكم ينبغى أن يكون هدفه الحق لا العاطفة .. هذا عن العواطف.

---

(١) سورة المائدة آية (٨).

(٢) حديث صحيح متفق عليه رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده ك الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود جـ٢ / ٤٧ عن عائشة .

– أما الانفعالات – فإننا، نجد أن كل مايصدر عن الإنسان من أنواع السلوك أما أن يكون سلوكاً سوياً أو غير سوى، وذلك بدوره يتوقف على حالة وظائف الإنسان العقلية من ادراك، وتصور، وتذكر، وتفكر... إلى غير ذلك، فكلما كانت هذه الوظائف سليمة قائمة بعملها بطريق طبيعي كلما كان السلوك سوياً مؤدياً إلى الغرض المنشود منه. أما إذا كانت الوظائف العقلية فى حالة لاتمكنها من العمل السليم فإن السلوك لن يكون مؤدياً إلى الغرض الذى ينشده الكائن.

والأساس فى كل ذلك هو مدى سيطرة هذه المراكز العصبية على هذه الوظائف العقلية، والمراكز العصبية هذه تتأثر كثيراً بما يحدثه الانفعال من تغيرات فيسولوجية قد تكون مثيرة منشطة، وقد تكون أيضا معوقة مثبطة.

ومن الأمثلة التى تتضح فيها درجة تأثير الانفعال تنشيطاً له حالة الفرح ففى هذه الحالة تنشط المخيلة فتتدفق المعانى والصور بسرعة ووضوح، ويبزغ نور الإلهام فجأة بعد فترة من الخمول، وقد يتبع هذا التيار الجارف من المعانى أفكاراً جديدة قد تمهد إلى الاختراع والابتكار والابداع.

ومن أمثلة التأثير الانفعالى المؤدى إلى عرقلة النشاط العقلى الذى يؤدى الى الاضطراب في التفكير وعرقلة النشاط العلمي – حالة الغضب الشديد – إذ يكون أثره على قوى الفكر سيئاً للغاية فيخلو الذهن من المعانى، والصور الدقيقة الواضحة مما يؤدى إلى عجز الشخص عن التفكير، وعجزه فى نفس الوقت عن القول والعمل المنظم، وعاجزاً فى نفس الوقت أيضا عن فهم مايحيط به من مواقف قد تقتضى تصرفات معينة، وأدراك الظروف المصاحبة للانفعال ألى درجة إننا نجد هذا الشخص بعد

زوال الانفعال عاجزا عن تذكر الحوادث التى أثارت انفعاله، أو تذكر ماجرى منه أثناء ثورته الانفعاليه هذه وعلى كل حال فسواء كان الانفعال منشطاً أو مثبطاً فإن مستوى النشاط الذهنى أثناء هذا الانفعال يكون أقل فى تماسكه وقدرته على العمل الجيد من عند الشخص الهادىء المتزن الضابط لنفسه، وذلك كله لأن الانفعال فى كلتا حالتيه هاتين يؤدى الى تلاشي مراقبة الارادة ، وإلى تقليل قدرة الشخص على النقد والتمحيص، والتحقيق وإذا ما ضعفت الارادة ، وتضاءلت قوة النقد فإن الشخص يصبح خاضعاً لدوافع عمياء ، ودوافع جبرية .

وفى هذا المجال لاتفتقد الإسلام القائد الموجه لحركة المسلم فى مختلف الظروف والأحوال فهو يتدخل ليضع الإنسان على الصراط المستقيم فقد روى أبو هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ماتعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا الذى لا يصرعه الرجال قال: صلى الله عليه وسلم: «ليس ذلك ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب»(١).

والإسلام لايعمل على محو الغضب كانفعال أصلاً ، وإنما هو يوجه طاقته إلى الخير والمفيد، ففقد القوة الغضبية أساساً يعنى عدم الحمية والنخوة، والإسلام يرى ذلك مذموماً ، ويحكى عن الإمام الشافعى – رضى الله عنه – قوله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار ،

وهو يقصد بالطبع الإنسان المعدوم الحمية والغيرة المتبلد وإلا فالاخلاق الإسلامية قد أفسحت مجالاً كبيراً للحلم وهو كبح جماح الغضب، ولكن المطلوب فى هذه القوة الإعتدال لأن التفريط فيها يجعل الإنسان أشبه

(١) صحيح رواه الامام مسلم في صحيحه بسنده البر والصلة والاداب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب جـ ٢ / ٤٣٩.

بالحمار تنتهك حرماته فلا تأخذه الغيرة على نفسه أو دينه أو عرضه ، والإفراط وهو المغالاة فى الغضب حتى يخرج صاحبه عن حده المعقول فيغلب صاحبه بحيث لايدخل تحت سياسة العقل، واشارة الشرع فيعبر الشخص معه كالمضطر على حد تعبير الأمام الغزالى .. وهذا الإفراط مذموم .

ولكن الاعتدال هو المطلوب . وقد عبر عن ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . .﴾[1].

وقد كان صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدنيا ، فإذا أغضب الحق لم يعرفه ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ..[2].

وتروى بعض الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع الصحابة يتجادلون فى القدر ويضربون كتاب الله بعضه ببعض فخرج محمر الوجه كأنما يفقأ فى وجهه حب الرومان ، ونهاهم بشدة ... « إنما أهلك ذلك من كان قبلكم ...»[3].

وإذا كان الاسلام قد حدد للغرائز طرق اشباعها بحيث لاتؤدى الى أضطراب الكائن أو اضطراب المجتمع ، فإنه هنا أيضا يعالج ظاهرة الغضب ويكبح ثورتها فى الانسان ونجد فيه الكثير من الاحاديث عن فضل كاظم الغيظ كما نجد فى كتب التراث الإسلامى ما يرسم الطريق إلى كبح هذا الانفعال وتحويل أثره ، وقد قيل فى علاج الغضب إن على العبد أن يعلم مدى ثواب كظم الغيظ ثم يخوف نفسه بعقاب الله، ويعلم أن الله أقدر عليه

---

(١) سورة الفتح آية (٢٩).

(٢) حول هذا راجع إحياء علوم الدين للأمام الغزالي / في آفات الحقد والحسد والغضب .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه / المقدمه / باب في القدر ١ / ٣٣ رقم ٨٨ من حديث عمرو بن شعيب عن ابن عم جده.

منه على غيره، وأن يحذر نفسه عاقبة الانتقام فإن من يغضب عليه قد يتمكن من إيذائه .

كما أن عليه أن يتفكر فى قبح صورة غيره عند الغضب ويقيس نفسه وأنه يشبه السبع إذا استعمل الغضب، وإن استعمل الحلم فلا يشبه إلا بالانبياء والأولياء، وإذا تأمل علم أن غضبه لجريان الأمر على وفق مشيئه الله تعالى لا على وفق مراده [1].

كذلك يوصي الإسلام ويأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ العبد بالله عند غضبه، فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا غضبت أم المؤمنين السيدة عائشة – رضى الله عنها – يأخذ بأنفها ويقول : ياعويش قولى: اللهم رب النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) أغفر ذنبى وأذهب غيظ قلبى، وأجرنى من مضلات الفتن ماظهر منها ومابطن [2].

ومن آداب الاسلام فى الغضب أن يقول الإنسان ذلك ويأخذ فى تغيير هيئته فيجلس إن كان قائماً ويضجع إن كان جالساً .... وهكذا .

والرسول صلى الله عليه وسلم يرسم معالم معالجة الغضب بصورة مرحلية تثير العجب والاعجاب « إن الغضب جمر يتوقد فى القلب، آلا ترون انتفاخ أوداجه ، وحمرة عينية فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا، فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم فإن لم يزل فليتوضأ بالماء البارد أو ليغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء » [3]. وهكذا يعالج الإسلام ظاهرة

(١) حول هذا راجع مختصر منافع القاصدين / ابن قدامة ص ١٥٨، ١٦٠ ط دار التراث

(٢) ذكره العراقي في تخريج الاحياء، وعزاه لابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة راجع اتحاف السادة المتقين ٥ / ١٠٤ ، وكنز العمال ٧ / رقم ٩-١٨٤ .

(٣) راجع مختصر منهاج القاصدين / ابن قدامه ص ١٦٠ والحديث أخرجه الامام الترمذي في سننه ك الفتن باب ما أخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بماهو كائن إلى يوم القيامه ٤ / ٤٨٣، رقم ٢١٩١ من حديث ابن سعيد الخدري وقال من صحيح ، والامام احمد في سنده ١٩/٣ من حديث ابي سعيد

الغضب ، إذا ماستبدت بالانسان . وحقيقة فإن تمثل هذه الأساليب من قبل الغضبان إذا ما قصد إليها ، أقول في مجرد تمثلها كسر لحدة الغضب، لأنها تحول الانتباه عن موضوع الغضب نفسه مما يترتب عليه توزيع الطاقة فتخف حده الغضب.

فإذا ما أخذ الانسان في التنفيذ فإنه يتخلص رويدا رويدا من الآثار المدمرة لهذه الظاهرة ، وبالتأمل في العلاج الذي حدده الاسلام لتلافي هذه الاثار نجد أن هذا العلاج يشمل الانسان في جانبه النفسي حيث يذكره بثواب كاظم الغيظ وبأن الله أقدر عليه ، وبأن غضبه لجريان إرادة الله ومشيئته عليه ، هذا علاوة على مايحدثه مجرد استعراض أنواع الدواء وقت الغضب من تبديد الطاقة الموجهة الانفعال ، كما يشمل الجانب العضوي الفيسولوجي ، فإذا كان الغضب جمرة فإن الاغتسال بالماء البارد يزيل حر هذا الغضب، ويساهم مساهمة كبيرة وفعالة في أن يعود الجسم إلى حالته الطبيعية، وكذلك تغير الهيئة يساهم في ذلك وبذلك يكون علاج الاسلام لهذه الظاهرة شاملا لجميع جوانب النفس، وبذلك يكون أنجح في تبديد أثر الغضب، وما يترتب عليه في تلافي مايترتب على هذه الأثار من نتائج ضاره بالفرد والمجتمع.

وبعد - فتعد هذه الاسباب هي أهم العوائق التي يمكن أن تعوق حركة الفكر الانساني وتحول دون أدائه وظيفته على الوجه الأكمل ، يحصيها الاسلام ، ويعمل على تلافي آثارها حتى تتوازن في داخل الانسان مطالبة المختلفة ويرسم الطريق إلى التحرر من سلطاتها منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، ثم اكتشفها بعض المفكرين الاوربيين في العصر الحديث ، فكانت أحد أسباب شهرته وذيوع صيته كمفكر علمي حر

وصاحب منهج مستنير، وأعنى به «فرنسيس بيكون» الذى عبرعن عوائق الفكر بالأوهام الأربعه، والتى كانت حدثا فلسفيا كبيرا، وقد سبق القرآن إليها فإذا كان القرآن قد نعى على اتباع الآباء والاسلاف اتباعا أعمى، فإنه قد نهى عن الذوبان فى المجتمع والخضوع لقيمه وتقاليده دون تدبر أو تفكير، وأشار إلى العوائق الوخيمة المترتبه على ذلك ﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم الا يخرصون﴾ (١).

وهذا هو الذى يسميه «فرنسيس بيكون» بأوهام الجنس، كذلك ماسمى عند بيكون بأوهام الكهف، وهى التى تتمثل فى التقوقع بين غرائز النفس وعواطفها واحاسيسها التى تصنعها الظروف الخاصه ، والملابسات الشخصية ، وتخرج بالانسان عن جادة الحق يشير إليها القرآن الكريم بقوله ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا﴾ (٢).

أما أوهام السوق عند «بيكون» التى تتمثل فى تاثر تفكير الفرد بما يدور فى الأماكن العامة من الاحاديث والمناقشات التى قد تخرج بالفرد عن مقتضى استقلاله الفكرى، فقد جاء التحذير من هذا بقوله تعالى ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين﴾ (٣).

وقد سبقت الاشاره إلى ما للمجتمع من أثر سلبى على الفكر

---

(١) سورة الانعام آية (١١٦) ، وحول هذا راجع اعلام الفلسفة الحديثة ... د/ رفقي زاهر ص ٢٢ وما بعدها.

(٢) سورة الفرقان آية (٤٣ ـ ٤٤). (٣) سورة الجاثية آية (١٨ ، ١٩).

وحقا ما يقال حول تأثر «بيكون» بثقافة الاسلام، فمن المعروف تاريخيا للأوربيين قبل الشرقيين أن تراث الاسلام قد ترجم إلى لغة الغرب، ونقل حينما اتيحت فرصة الاتصال بين الشرق والغرب، وثبت أن «بيكون» من بين من تعلموا على يد أساتذته الذين هم من تلاميذ العرب فى الاندلس [وهكذا يتبين لنا مدى اشباع ملكة التفكير فى الانسان ، فقد اتاح لها الاسلام الاشباع فى ميادين التفكير .. فلم يكبت غريزة التفكير فى الانسان وإنما حدد لها مجال عملها .. هذا وقد راعى الاسلام فى مخاطبته للانسان وهو بصدد العقائد والتشريعات . فجاءت عقائده فيما يتعلق بوجود الله وصفاته والعقائد جمله أن يكون الخطاب متوجها إلى هذا الجزء الشريف فى الانسان وهو العقل فهو يلبى فيه دافع حب استطلاع المغيبات بالقدر الذى تسمح به طاقته واستصحبه فى ذلك بالاستدلال عليها حتى يكون الإيمان اعتقاد مستند إلى دليل.

وهكذا راعى الاسلام إلحاح دافع التفكير وحب الاستطلاع ووصل به فى الاشباع إلى مايحفظ على الانسان توازنه النفسى ، وبذلك يكون الاسلام قد أحاط هذه الملكة بسياج من العناية والرعاية فبين قيمتها وحدودها وأهميتها ثم طرق وقايتها والعلاج الناجح لها . ذلكم هو الدين القيم الذى ارتضاه الله لعباده واتم عليهم النعمة به ، فاللهم أحينا عليه وأمتنا عليه أمين يارب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

أستاذ دكتور / **محمد محمد يحيى**

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية